مواسم السعى إلى ضم الصفوف

للدعوة إلى ضم الصفوف عندنا مواسم، وللساعين إليها فى مواسمها طابع خاص، وهم مهما حاولوا أن يخفوا من ألوانهم فإنَّ الأيام تأبى إلا أن تكشفهم للناس فى أقرب مما يظنون.

وهذه المواسم أصبحت معروفة عند الكافة، حتى لقد يشعر الناس بإنها مقبلة عليهم قبل أن تقبل. قريبة منهم قبل أن تقرب. وليس سر ذلك أنَّ الناس مرهفو الإحساس، أو أنهم يشعرون بالحاجة إلى الدعوة أو أنَّ مصلحة الوطن تقتضيها أو توحى بها. لا شىء من ذلك. إنما الناس قد اعتادوا هذه المناورة وفهموها، وعرفوا أحيانها ومواسمها. لا كما يعرف سكان الصحراء قرب هطول الأمطار ونزول الغيث، بل كما يعرف أهل الصين قرب هبوب أعاصير الهواء الأصفر.

فمواسم الدعوة إلى ضم الصفوف لم تعد مجهولة عند أحد، فهى دائمًا تطالع الناس كلما وليت وزارة الوفد الحكم أو كانت قريبة منه، أو على الأقل فى الوقت الذى يتوهم فيه أولئك الساعون أنَّ الوفد قد يكون على مقربةٍ من الحكم.

فإذا أذَّن مؤذن فى الوادى بأنَّ حكم الدستور لا مفر من النزول عنده، وأدرك خصوم الوفد أنَّ معنى هذا أن تجرى الانتخابات حرة أخذتهم الراجفة وأحسوا بأنَّ الأرض تنهار تحت أقدامهم، وأنَّ ما أشاعوا من دعاوى عريضة بأن الشعب قد انصرف كله أو بعضه عن الوفد يوشك أن يفتضح أمره.

وتبدأ المناورة بأن يتصل من يتصل بالوفد أو بأحد أقطابه فإذا كان الجواب أنَّ الوفد ملتزم حكم الدستور راضٍ بالاحتكام إلى الأمة. ارتفعت الأصوات وعلا الضجيج وقيل إنَّ الوفد يعارض ضم الصفوف من فرط أنانيته وحبه لنفسه. وفى

يوم وليلة ينقلب الساعى مهاجمًا للوفد متهجمًا على زعيمه يكيل له المطاعن والسباب وهو قبل ذلك بساعات كان يتقرَّب إليه ويبغى الوسيلة لديه ويضفى عليه ألوانًا من الصفات الكريمة.

عرفنا هذا الموسم وعرفنا أولئك الساعين بسيماهم، فلم تعد تخفى علينا منهم خافية، لأنَّ هذه الرواية بعينها وبكامل أدوارها وفصولها وبغالب ممثليها قد سبق لها أن مثلت فى مصر فى مثل هذه المواسم وانتهت إلى مثل ما ستنتهى إليه مساعى اليوم.

وأحزاب القلة هى بعينها دائمًا وراء هذه المساعى تترقبها فى قلقٍ وتترقبها فى وجل.

حدث ذلك فى كل وقت وحين ولى فيه الوفد الحكم. أو كان موشكًا أن يليه أو ظنَّ أنَّ هناك احتمالًا، لأنَّ القصد الحقيقى ليس هو ضم الصفوف إنما القصد هو محاربة الوفد أولًا فإن استحال ذلك فمشاركته فى ثقة الشعب به ما دام أنَّ الأمر عند الاحتكام غير مأمونٍ ولا مضمونٍ. موقف تأباه الكرامة ولكن هكذا قدر على أحزاب القلة، فهى لا تفتأ تستجدى الوفد اتفاقًا يحلل لها ما لا يحلله الدستور ولا يرضاه الشعب يوم يترك الأمر طواعية واختيارًا إليه.

فى عهد الائتلاف فى سنة 1926 اتفق الوفد والأحرار الدستوريون على توزيع الدوائر وكانت للوفد كثرته بطبيعة الحال، فكان مرشحو الوفد يقولون للناس إنهم مرشحو الأحزاب المؤتلفة. وكان سعد طيب الله ثراه يضحك سخرية من هذا الوصف العجيب. ولقد أذكر أنَّ دائرة بلدى الجعفرية وكانت تسمى دائرة (تطاى) تركت للأحرار فرشحوا فيها المرحوم أحمد بك الشيخ. وزاحمه حضرة الشيخ المحترم الدكتور عبدالخالق سليم الذى تقدَّم من تلقاء نفسه وفديًا ولكن الوفد لم يرشحه لأنَّه تقدم كما يقول الطلبة «من منازلهم»، فقامت الدنيا وقعت وكتبت

جريدة السياسة فى هذا طويلًا وكان جواب سعد أنَّ الوفد لم يرشح وكفى وكان مرشح الأحرار رحمه الله يقول: «ولكنى مرشح الأحزاب المؤتلفة»، إلى هذا الحد تجد أحزاب القلة نفسها فى حاجةٍ إلى التحكك بالوفد والتماس التزكية من الوفد ولو من بعيد، وما أشبه الليلة بالبارحة.

أما إذا نحى الوفد عن الحكم، أو حلَّت به محنة من المحن. ووصلت فى أعقابها الأقليات إلى الحكم بالطرق غير المشروعة من الدس هنا وهناك، إلى تزييف الانتخابات. وتحكمت الأقليات فى شئون البلاد وغدت تضطهد الوفديين فى كل مكان موظفين وغير موظفين، وتحارب الناس فى أرزاقهم وظلت تحكم حكم الحقد والجبروت وأصبح جو البلاد خانقًا، فهناك لا يرتفع صوت بضم الصفوف ولا بالحديث عنه ولا بالهمس به.

أين كان أولئك الساعون الأماجد فى سنتى 1938 و1939 وأين كانوا بعد سنة 1944 إلى أن ولى رفعة سرى باشا الحكم فى سنة 1949، وأين كان الساعون الأماجد لما ولى الحكم أخيرًا دولة الهلالى باشا وصرف كل همه فى محاربة الهيئة التى علا شأنه فى البلاد لما انتمى إليها وانتظم صفوفها. أين كان الساعون عندما ظهر كتاب دولته بتأليف وزارته وفيه أسطر ثلاثة لا تزيد على الأهداف القومية وثلاثون سطرًا أو تزيد مرَّغ فيها الأمة فى أقذر الاتهامات ودمغها بأشنع الأوصاف.

ولقد قلت فى كلمة سابقة إنَّ وراء هذه الدعوة الأخيرة التى تولاها حضرة صاحب المجد النبيل غرضًا لأحزاب القلة هو محاولة استجداء اتفاق على مقاعد النيابة مادام أنَّ الانتخابات ستجرى حرة وفقًا لما ينبئ به قيام رفعة سرى باشا بمهام الحكم. ولقد ظهرت أحاديث لنبالته بعد ذلك ينفى فيها أنَّ وراء دعوته مثل هذا الهدف وطبيعى يحصل هذا النفى لكن الذى قلته هو الصحيح وأنا أصر عليه ولا أحيد عن تبصير الناس بأنَّ أحزاب القلة وراء هذه الدعوة وأنَّ مصدر القلق هو توقع الانتخابات الحرة وما تجلبه على القلة من نتائج خبروها واكتووا بنارها.

إنَّ الذين زجوا بحضرة صاحب المجد النبيل فى هذا السبيل إنما أرادوا أن يتفادوا شيئًا واضحًا محددًا هو أن تكون نتيجة الانتخابات القادمة حصول الوفد على الكثرة التى عوده الشعب أن يمنحه إياها. فيراد من الآن قطع الطريق على هذه النتيجة.

وإذا سمح لى القراء أن أتنبأ بشىء جديد فإننى أطالعهم من الآن بهذه النبوءة وهى أنَّ هذه الجهود التى يبذلها صاحب المجد النبيل مدفوعًا بأقطاب أحزاب القلة ستنتهى قريبًا إلى طلبات توجه إلى الوزارة القائمة تتصل بقانون الانتخاب وجداول الناخبين ونعود نسمع الحديث عن الانتخابات بالقائمة وما إلى ذلك مما مجته الأسماع فى عهد الوزارة الهلالية. وسيجد رفعة سرى باشا نفسه بين أمرين، إما أن يساير القلة، أو يعمل وفقًا لضميره وحده. فهو إن ساير القلة رضيت عنه وهادنته، وهو إن استقل برأيه فستهاجمه القلة وتتهمه بأنَّه يمهد للوفديين وأنَّ وزارته قنطرة وأن ... وأن ... وأخيرًا تضرب القلة عن دخول المعركة الانتخابية ومصر لن يضرها ذلك بشىء.

بقيت كلمة لابد لى من أن أختم كلمتى بها وهى أننى قرأت فى صحيفة السعديين صبيحة الأربعاء الماضى بيانًا لحضرة الساعى إلى ضم الصفوف حمل فيه على رفعة رئيس الوفد حملة مليئة بالمطاعن التى لا يجوز أن تجرى على أفواه النبلاء والأمراء. ولقد كدت أقبض بيدى على كاتب هذا البيان الذى ينم عنه قلمه وأسلوبه ولازمته التى تلازمه فى تفكيره وتحريره وهى «وأخيرًا وليس آخرًا» وغير ذلك من عبارات تكشف عنه.

ولست أريد أن أقول لحضرة صاحب المجد النبيل إلا كلمة واحدة، وهى أنه إذا صحَّ عن رفعة النحاس باشا كل ما نسبته إليه وألصقته به من صفات ونعوت غير كريمةٍ، ففيم كنت نبالتك تسعى إليه وتخطب وده وتريده فى مقدمة الصفوف،

إنَّ رجلًا بالوصف الذى وصفته به لم يكن جديرًا بشرف اتصالات مادمت مؤمنًا بما نسبته إليه ومعتقدًا له. ومادام أنَّ نبالتك تشعر بأنَّ نفسك العالية (مليئة) من هذا الزعيم إلى هذا الحد، فقد حكمت بنفسك على نفسك بأنك آخر من يصلح لمعالجة الأمور التى عرضت لها، فالوسطاء بين المختلفين من الناس يجب أن يكونوا محايدين لا هم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ويجب أن يكونوا كرامًا واسعى الصدر حتى تتيسر مهمتهم إن كانت لهم مهمة جدية، لكن البيان المشار إليه قد كشف للناس أنَّ نبالتك من ألد خصوم الوفد وزعيمه. وأرجو المعذرة يا صاحب المجد فما كنت أود علم الله أن أنطق بمثل هذا ولكن...